أسطورة ياسر عرفات

هاني فحص*

# أبو عمار في طهران:
# من سيرتي في سيرته**

## "درود برخميني سلام بعرفات"

سمعناها أول مرة في مطار طهران بعدما حطت الطيارة، واستطاع مَن التقطوا الخبر أن يهرعوا إلى المطار لينضموا إلى جميع العاملين فيه، فازدحم المكان بالوجوه والأيدي والعيون والهتاف والدموع بحيث لم يبقَ من زجاج قاعة الاستقبال شيء سليم... وأينما نذهب في طهران كنا نسمع هذا الهتاف صاعداً من القلب إلى القلب، ومن القلوب جميعها إلى التاريخ... ويحتدم الأمل في وجدان أبو عمار فيردّ على بريجنسكي من هناك: "باي باي لمصالح أميركا في بلادنا"، بعدما كان بريجنسكي قد قال قبل أسابيع: "باي باي لمنظمة التحرير"، وكانت حرب النظام العراقي ضد إيران محاولة أولى استُكملت في الاجتياح الإسرائيلي للبنان. وكان اليأس هو الأولى، لولا أن تأثيرات المقاومة في لبنان أثبتت جدواها وامتدت سنة ١٩٨٢ إلى الأرض المحتلة فكانت الانتفاضة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والألف إلى أن يستريح برّ ويستراح من فاجر إذا ما بقيت الحكمة حاكمة.

أمّا متى؟ فقد كان يحلو لأبو عمار كثيراً أن يكون حكيماً يستمد حكمة من القرآن بواقعية خالية من الأوهام فيردد الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (سورة المعارج، آية ٦ ـ ٧). لا موعد مع فلسطين، لكن فلسطين هي الوعد والموعد مهما يتعاظم الوعيد... هذه المقدمة، وما يليها، يتعاملان مع الثوابت بصرف النظر عن تمظهراتها التاريخية وتعقيداتها، انطلاقاً من قناعة بأن الثوابت بمستوى القوانين، وهي التي تحكم في النهاية أي علاقة وأي مسار وأي مآل لصراع المظلوم ضد الظالم وصاحب الحق ضد غاصبه.

---

* رجل دين وكاتب لبناني.

** كتب السيد هاني فحص هذا النص بناء على طلب هيئة التحرير، وقبل أن توافيه المنيّة في ٢٠١٤/٩/١٨.

كانت الثورة في إيران حارّة وطازجة، عندما أتيح لي مرافقة أبو عمار في أول رحلة لأول زعيم عربي إلى طهران. وقد تم تحويل السفارة الصهيونية إلى سفارة فلسطينية، وجرى تغيير اسم الميدان الذي تقع فيه السفارة في وسط المدينة من "ميدان كاخ"، أي القصر، إلى ميدان فلسطين. وسفارة فلسطين كانت منزلاً قديماً لأحد الصدور العظام، أي رؤساء الحكومة في العهد القاجاري، وكانت قبل تدشينها الفلسطيني مقراً للمكتب التجاري الإسرائيلي الذي استُخدم مدخلاً للتغلغل في إيران اقتصاداً وسياسة وثقافة وأمناً، وغطاء للعلاقات الدبلوماسية الكاملة التي كان إعلان إنشائها في أوائل الستينيات سبباً مباشراً للمجزرة التي ارتُكبت في قم (المدرسة الفيضية)، ولاعتقال الإمام الخميني الذي اعتبر العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل خيانة من الشاه استناداً إلى الدستور الإيراني، وطالبه بالنزول عن العرش.

كان أوري لوبراني الذي يتقن الفارسية والمتخصص بالشؤون الشيعية، على رأس البعثة التجارية (الأمنية) الصهيونية، وكان معروفاً باسم رمزيّ هو مسعود. وقد اكتشف أبو عمار هذه المفارقة قبل نجاح الثورة بقليل وأخبرني بها، وكان مع مسعود جهاز استخبارات مختلط من عدة جنسيات، من إيران وإسرائيل وغيرهما، ولا يقل عديده الأساسي عن سبعين عضواً (كادراً). وبقي لوبراني مع جهازه في إيران لأيام بعد انتصار الثورة، واستطاع أبو عمار أن يرصد حركته في اليومين الأخيرين من عمر حكومة بختيار، واكتشف أنه بعد سقوط هذه الأخيرة توجه إلى الأهواز تمهيداً لترك إيران نهائياً. وكلفني أبو عمار الاتصال بالقيادة الإيرانية وتبليغها الأمر، كما أنه استنفر امتداداته في الخليج ليراقب حركة لوبراني وطريق خروجه... لكنه لم يصل إلى نتيجة محددة وقتها. وكان لا بد من تعيين سفير للسفارة، وقبيل العودة بُلّغ الإيرانيون أن هاني الحسن هو الذي تم اختياره لهذه المهمة. وكنت سمعت همساً يدور حولي من رفيقَي الرحلة: أبو مازن، عضو اللجنة المركزية لحركة "فتح"، وحامد أبو ستة، عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة، وكنت التقيتهما أول مرة في بداية الرحلة في دمشق، بأني قد أكون الشخص الملائم للسفارة. ودخلت معهما في نقاش طويل عن الأدوار المتنوعة التي لا بد من أن تتلاءم مع المواقع المتعددة، وذكرت لهما، تمهيداً لصرفهما عن الفكرة التي كانت أقرب إلى المحبة والعاطفة منها إلى السياسة، أن حديثاً جرى مرة بين عدد من الشباب اللبنانيين المتعاونين مع حركة "فتح"، من موقع العضوية في التنظيم اللبناني الفتحاوي، أو موقع الصداقة أو التحالف أو التفاهم أو التأييد، بشأن ضرورة أن يتأسس تنظيم لبناني متعاون إلى أبعد الحدود، إلاّ إنه متمايز من الحركة تنظيمياً وبرنامجياً، كي لا يكون الاندماج استقالة من الشأن الوطني اللبناني، وكُلفت شخصياً نقل هذه الأطروحة إلى القيادة نظراً إلى دقة المسألة. ولم يواجه أبو عمار هذا التصور بالرفض، وإنما ألّف بالتفاهم مع خليل الوزير (أبو جهاد) لجنة مكونة من المرحوم جواد أبو الشعر وصخر حبش ومني للتعمق في البحث. وبعد أيام بادرني المرحوم جواد بالنصيحة، قائلاً بشفافيته وواقعيته المعهودتين: ما دام أن أي مجموعة لبنانية منضوية بنسبة أو بأُخرى تحت لواء حركة "فتح"، فإن جانبها يكون مأموناً من طرف سائر الأنظمة العربية لأن مرجعيتها محددة، فإذا كان هنالك تنظيم منفصل مدعوم من "فتح"، فإن معنى ذلك أن الأمر سيتمدد إلى أقطار عربية أُخرى من دون أن تتحمل "فتح" مسؤولية عمله في أي قطر منها، وبذلك تصير حركة "فتح" تنظيماً ذا فروع

وطنية متعددة تتعدى الإطار والسقف الفلسطينيين، وتدخل في توترات مع السلطات في هذه الأقطار من دون أن تكون "فتح" مسؤولة عنها، وإن كانت ظلها الذي يحتمي بها. وهذه إشكالية معقدة لا تقوى حركة "فتح" على تحمّل تبعاتها... وعليه، فإن المسؤولية التنظيمية والسياسية لا بد من أن تبقى فتحاوية فلسطينية حصراً، وإلاّ فالانفصال التام. وسألت جواد عمّن قال هذا الكلام، فأكد لي أنه كلام متفق عليه بين أبو عمار وأبو جهاد.

أصغى أبو مازن وأبو ستة إلى كلامي الطويل وسألاني ما مناسبة هذه الرواية، فقلت إن العاطفة مهما تقوى وتتعمق، لا يجوز أن تغير الثوابت الراسخة، لا على المستوى العام ولا على المستوى الفردي. وأكملت مخاطباً أبو مازن بأن دوري هو كقناة تواصل واتصال قبل نجاح الثورة، بينها وبين المقاومة الفلسطينية وحركة "فتح" تحديداً. وهذا التواصل تم بناء على رغبة إيرانية، واستناداً إلى علاقات سابقة بدأت في باريس مع عز الدين القلق، وفي برلين مع عبد الله الإفرنجي، وأثمرت في بعض نواحيها توافد عدد محدود من كوادر الثورة الإيرانية (أبو شريف مسؤول عمليات الحرس الثوري لاحقاً، والدكتور عبد الله والسيد الموسوي، اللذان استشهدا في الحرب بين إيران والعراق لاحقاً... وغيرهم كثيرون) إلى لبنان وإلى الجنوب تحديداً كي يتدربوا على السلاح، وقد اختار بعضهم الاستمرار لفترة أو لأُخرى، ثم عاد إلى طهران... هذا الدور كان مرتبطاً بضرورات لم تعد قائمة. ولم أكن متفهماً لقرار تعيين هاني الحسن فحسب، بل كنت متحمساً أيضاً لاستبعادي، لأن المفترض أن أكون بعد نجاح الثورة في حالة من القرب البعيد أو البعد القريب، وهذا الأمر لم يفت على المعنيين به مباشرة، أقصد أبو عمار وهاني الحسن. أمّا الإيرانيون فلم يكونوا في هذا الوارد قط، وخصوصاً أن وزارة الخارجية الأولى بعد الثورة كانت في يد كريم سنجابي، الآتي من الجبهة الوطنية ( "جبهة ملي إيران" ). ولم يكن لديّ قبل الثورة أدنى معرفة به وبالتيار الوطني عامة، سوى لقاء عابر مع صادق طباطبائي في أثناء زيارة لي لخاله الإمام موسى الصدر، ولقاء أكثر من عابر في سنة ١٩٧٣، مع صادق قطب زاده من حركة تحرير إيران* ( "نهضت آزادي إيران" )، وهو العضو الفاعل في الجبهة الوطنية، والذي كان صريحاً إلى حد التهور، بحيث إنه في حديثه معي انتقد كثيراً ومطولاً وبشكل قاس رجال الدين، قائلاً أنه غير مرتاح إلى التعاون معهم، ولن يتعاون معهم في المستقبل. فضلاً عن ذلك، فإن المرجع الأعلى لوزارة الخارجية في حكومة بازركان، الأولى بعد الثورة، كان إبراهيم يزدي من حركة تحرير إيران.

في الأيام الأولى لوصولنا إلى طهران اكتشفت أن الطريق إلى قلب يزدي أمامي كانت في منتهى الضيق إن لم تكن مسدودة، وذلك بسبب حساسيته المفرطة تجاه الموضوع الفلسطيني ومنظمة التحرير، ورغبته العميقة والشديدة في أن تكون العلاقة بـ "فتح" وأبو عمار والمنظمة محصورة فيه، فلا تتعداه إلى قوى سياسية أُخرى، ولا سيما فريق عمل الإمام الخميني،

* جرى اللقاء في فندق الفينر هاوس في بيروت، ثم بدأنا، بالتنسيق مع جلال الدين فارسي، باستقبال شخصيات أقرب إلى الإمام الخميني (الشيخ محمد علمي، السيد محتشمي، السيد حميد روحاني، وأمثالهم). وتكثفت الوفود واللقاءات مع الرئيس الراحل ياسر عرفات بعدما حملتُ رسالة تعزيته إلى الإمام الخميني بوفاة نجله.

علاوة على حساسية واضحة وتوتر شديد من جانبه ضد جلال الدين فارسي وموقعه القوي في سياق العلاقة التاريخية بحركة "فتح".

إلى جانب ذلك، فإن إبراهيم يزدي، شأنه شأن بقية القيادات في حركة تحرير إيران، كان يجاهر بضيقه من حضور رجال الدين في سياق الثورة والدولة واحتمالات المستقبل، وقد همس في أذني، لدى جلوسه إلى جانبي في طريق عودتنا بالطيارة من الأهواز إلى طهران برفقة أبو عمار، كلاماً لم أفهمه تماماً لأني لا أجيد الإنجليزية ولا الفارسية، وهو لا يجيد العربية. وعندما نقلت انطباعي عمّا قاله إلى هاني الحسن، أكد لي أنه تكلم معه بكلام واضح عن رجال الدين، وأن مشكلة إيران المقبلة ستكون معهم.

واستعمل تعبير "يورملز"، أي ملاليّيكم، مخاطباً هاني الحسن. إذاً، أصبح هاني الحسن سفيراً لفلسطين في طهران، واستطاع خلال أسابيع أن يبني علاقاته بفريق الإمام الخميني الديني والمدني (رفسنجاني بصورة خاصة) بسرعة وبطريقة فيها كثير من الذكاء والبراغماتية الفلسطينية ذات الحدين. وكانت تجربة احتلال السفارة الأميركية اختباراً لهذين الحدين عندما يعملان معاً، وقد احتاج فريق الإمام إلى مدة طويلة كي يستطيع لاحقاً التوفيق النسبي بين المبدئية والذرائعية، أو بين التكتيك والاستراتيجيا.

ولإدراكي حساسية موقعي كرجل دين شيعي، وتوقعي لتعقيدات آتية في سياق العلاقة الفلسطينية ـ الإيرانية، أي بين المنظمة ودولة الثورة، قررت ألاّ أقع في الالتباس الذي جعلني فلسطينياً عند الإيرانيين وإيرانياً عند الفلسطينيين، فأخسر الطرفين معاً، وأن أتشبث بموقعي الوسطي مقلعاً عن دور الوسيط، من دون تنصل من وظيفتي عندما يقتضي الأمر، وهذا ما جرى لاحقاً، أي عدم التنصل في اللحظات الحرجة، من موقع القناة، فعاودت القيام بوظيفتي القديمة عدة مرات، ثم أدركت مدى صعوبتها عندما حملت إلى الإمام الخميني رغبة أبو عمار في التدخل للمصالحة بينه وبين السيد شريعتمداري، وكانت ردة فعل الإمام دهشة عبّر عنها بقوله إن في هذا العرض تبسيطاً شديداً للمسألة... وبعد سنة ١٩٨٢ تلقى أبو عمار رسالة من الشيخ هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس النواب الإيراني وقتها، يلومه فيها على الخروج من لبنان، ويتساءل عمّا إذا كان ذلك طلباً للسلامة بناء على رغبة أبو عمار والقيادة الفلسطينية في البقاء في مواقعهم (وفي الرسالة كلام عن جاذبية السجادة الحمراء). وردّ أبو عمار برسالة غاضبة، مؤكداً تقديره للمقاومة في لبنان والدور الإيراني فيها، ومذكراً الشيخ رفسنجاني بأن ما جرى لم يكن ليجري بهذه الكفاءة وهذه السرعة لولا أن المقاومين في الجنوب كانوا في أغلبيتهم الساحقة قد تدربوا على السلاح وشاركوا حركة «فتح» في مواقعها العسكرية... وردّ الشيخ رفسنجاني برسالة إيجابية... ولم تخل الرسائل المتبادلة من التعبير عن المودة العميقة. وكان دوري تقديم المشورة لأبو عمار بشأن ردوده، من أجل تدوير الزوايا، وهو مسلك مشهور عنده، ولذلك لم يكن من الصعب أو المحرج أن ألفت نظره إلى ضرورة التطرية. وقد استجاب لملاحظاتي استجابة شبه كاملة، وأتاح لي أن أعيد صوغ الرسائل بشكل مختلف نوعاً ومضموناً. وكانت الحرب العراقية ـ الإيرانية سبباً في وضع حد لوظيفتي القناتية مدة طويلة جداً، وكانت العودة إليها محدودة جداً، وكان ذلك متأتياً من التباس في المنظور الإيراني لموقف أبو عمار، بعدما أصر أبو عمار، في أثناء رحلته السريعة والخطرة والمعقدة والمثيرة إلى طهران عبر موسكو، ثم أذربيجان

فطهران، عن طريق البر، على الخروج من طهران بقرار إيراني بالمصالحة وإنهاء المعركة مُقراً بالعدوان العراقي، ومتخوفاً من نتائج الاستمرار. وأبدى أبو عمار تخوفه من أن يؤدي طول أمد المعركة إلى إشغال إيران نهائياً عن الشأن الفلسطيني فيمنعها من تحقيق ما شرعت في تحقيقه فعلاً من تعويض غياب مصر بعد كامب ديفيد. وهنا رد السيد أحمد الخميني على أبو عمار متسائلاً عمّا إذا كان في إمكان إيران أن تتنازل تحت الضغط العراقي، مرجحاً أن تتحول المعركة عبر الاستنفار الوطني الشامل إلى مناسبة لبناء كل شيء في إيران، فالصمود الإيراني والإمكانات الإيرانية سيكونان ضمانة نهوض لاحق على قاعدة الاستقلال والسيادة الراسخة وبناء الدولة التي يهددها التنازل أكثر ممّا تهددها الحرب، وإن كانت غير متكافئة في البداية. وأعطى السيد أحمد مثالاً هو عدم التوازن في عوامل القوة العسكرية والاقتصادية والدولية بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينية، لكن ذلك لم يمنع هذه المقاومة من أن تستمر، وأن تطرح قضيتها على العالم.

روى لي عرفات أنه في القمة التي عُقدت بعد بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية، تعامل مسؤول عربي من قطر التي كانت أكثر الأقطار العربية تضرراً من النظام العراقي، بقساوة مع أبو عمار بسبب الود المستمر بينه وبين إيران، واستخدم لغة مذهبية في محاولة لـ"التنمير" على أبو عمار والتحريض عليه عندما قال له مستنكراً: لقد أدمنت الصلاة بإمامة الخميني. وكان أبو عمار عبر علاقاته بأصدقائه من الإيرانيين من ذوي الحرص على التفاهم والوضوح، قد استدعى إلى القمة مجموعة من أهل المعرفة والسياسة من الإيرانيين كي تكون على مقربة ممّا يجري، وتتولى توضيح بعض الغوامض.

***

أذكر أنه بلغ بي الارتياب بالنظام العراقي أشده بعد الأيام الأولى لنجاح الثورة الإيرانية، عندما جمعتني مناسبة بعدد من قيادات حزب البعث العراقي في لبنان. ودار الحديث بيننا عن إيران فقلت ناصحاً ببراءة غير سياسية إن قيادة الإمام الخميني للثورة والدولة تمثل صمام أمان وضمانة دينية وأخلاقية وسياسية لعلاقات إيران بالعراق في المستقبل، وإنه يحسن أن نغتنم هذه الفرصة. فردوا عليّ بصوت الواحد، أو صدى صوت الواحد، بأن حزبهم حزب علماني، وهو لا يثق بأي قيادة دينية، لأنها رجعية ومتخلفة، وأنهم يفضلون مجاهدي خلق على تيار الإمام الخميني كونه ليس ثابتاً في مستقبل إيران، ودور العراق أن يعجل في نهايته كي يؤول الأمر إلى القوى الثورية. وكنت استشرت أبو عمار في هذه المبادرة فنصحني بالقيام بها، وعندما بلّغته النتيجة طلب مني تبليغ الإيرانيين ذلك لأنه ربما يكون مقدمة لأمر ما. وعندما انقلب صدام على البكر قال لي أبو عمار: بدأ المشوار!

في سفرنا الأول إلى إيران قدرت أن أبو عمار فوجئ وهو يراني أصعد سلم الطيارة الأميرية الإماراتية في طريق العودة وقال: ها أنت عائد؟ على ماذا اتفقنا؟ قلت لا بد من التفكير. وهمس محمود عباس في أذني كلاماً فضحكنا، فالتفت أبو عمار قائلاً: أنت تعمل برأي أم حسن أكثر مما تعمل برأيي؟ فقلت له إن ناظم حكمت يقول: وطني حيث تكون زوجتي، وأنت زوجتك فلسطين ولذا فإنك لن تستقر إلاّ معها وفيها. وحدثت الجميع بما جرى عندما

ذهبنا في أيلول / سبتمبر ١٩٧٨ إلى "نوفل لو شاتو" قرب باريس، ناقلين إلى الإمام وفريق مستشاريه تصورّنا واستعدادنا لإقامته بلبنان إذا لم تجدد له فرنسا سمة البقاء فيها، متوقعين أن يكون الانتصار أبعد من موعده الذي تحقق فيه بعد أشهر قليلة. وبعد يومين من المباحثات، أبدى الإمام ميلاً خفيفاً إلى القبول بالمشروع، وقال: أيضاً، عليّ استشارة.. فتعجبنا وسألناه: ومَن تستشير؟ فلم يتحرج من الجواب قائلاً: زوجتي! وعلّق الجميع بأن هذه علامة مضيئة جداً.

وسافرنا في طيارة المرحوم الرئيس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الخاصة، بعدما صُرفت الطيارة السورية الخاصة، لا بسبب الفارق النوعي بين الطائرتين ـ إذ كانت طيارة الرئيس حافظ الأسد عادية، بينما طيارة الشيخ زايد تشعرك بأنك في قصر طائر يجمع أحدث التجهيزات والمفروشات من المنامات إلى المكاتب والحمامات ـ وإنما كان لا بد من صرف طيارة الرئيس الأسد وطاقمها نظراً إلى إصرار المرحوم الشيخ زايد على أن يمر به عرفات عائداً من طهران كي يضعه في صورة الوضع فيها.

في مطار طهران كان في وداعنا عدد من المسؤولين الإيرانيين، منهم إبراهيم يزدي والسيد محمود دعائي رئيس مجلس إدارة جريدة "إطلاعات" منذ سنة ١٩٨٠، والذي عُيّن أول سفير لدى العراق بعد الثورة، وكان مأخوذاً في الاعتبار عند تعيينه أنه كان في أثناء نفي الإمام في العراق أحد الذين تولوا التنسيق مع الدولة العراقية، ولا سيما في المجال الإعلامي، وهو ما كان علامة على رغبة القيادة الإيرانية في طمأنة الدولة العراقية، وهي علامة التقطها الرئيس العراقي أحمد حسن البكر وعبّر عن ارتياحه إليها في لقاء مع أبو عمار لاحقاً. وقد نقل أبو عمار هذا الجو لاحقاً إلى الإيرانيين في حضوري، غير أن التطورات التي حدثت في العراق بعد ذلك، من إلغاء الميثاق القومي الذي عقده البكر مع الرئيس حافظ الأسد، إلى إقالة الرئيس البكر وإعدام عشرات القياديين من أصدقائه وفريق عمله والمؤيدين للميثاق القومي، كانت أموراً مهدت لحرب عراقية ـ إيرانية كانت سبباً في كثير من الخيبات والإحباطات.

أدهشتني أسماء الحوانيت والمرائب في شوارع دبي وأبو ظبي، وهي أسماء إيرانية مثل "فروشاكاه بندر عباس" و"بنشر شيراز". وعندما لاحظ أحد المسؤولين الإماراتيين دهشتي، وكان الرفاق الباقون يعرفون عن الخليج أكثر مني كثيراً، ويعرفون حجم الجوالي الإيرانية في مختلف الإمارات حتى قطر والبحرين مروراً بالكويت... قال المسؤول: نحن لو أردنا لما استطعنا معاداة الثورة ولا الدولة، لأن مفاصل حياتنا اليومية هي في أيدي الإيرانيين، من صناعة الخبز إلى بناء البيوت. وأشار إلى سائقه الإيراني فقال: الراديو في السيارة مفتوح دائماً على الإذاعة الإيرانية، وأكاد أحفظ أناشيد الثورة من دون أن يكون لي أدنى معرفة باللغة الفارسية. لم تسلَّم جوازات الوفد إلى سلطات الأمن في مطار دبي، ولم تُعرف الأسماء المجهولة مثل اسمي، فظن ضباط الأمن الإماراتيون أني إيراني، وهمس بعضهم في أذن بعض بأني ربما أكون السيد أحمد، نجل الإمام الخميني، وأن الإمام ربما يكون أرسلني لتطمين المسؤولين إلى مستقبل العلاقة، فأحاطوني بعناية فائقة دفعت ثمنها منعاً لأحد من مقابلتي ومن إيقاظي صباحاً لتناول الطعام والتوجه إلى المطار، إلى أن وصل الوفد إلى المطار فافتقدني أبو عمار واتصل بالفندق طالباً نقلي. فنقلني سائق تكسي هندي ـ المسكين ـ منّى

نفسه بأجر وافر، لكني كنت خالي الوفاض من أي نقد، وفي عجلة من أمري، لأن الوفد أصبح في الطيارة التي كانت على أهبة التحرك. فحييته بلطف منصرفاً فردّ بالصراخ وظل واقفاً.

عندما يعاتبني مَن أحبهم ويحبونني على زهدي المخلوط بالجهل بطرق التحصيل عندما تحتدم الرغبة في اليسر والتيسير على الذات والأهل، ويقارنونني بمَن لا أرضى أن أقرن بهم، أؤكد لهم أني عندما ذهبت إلى النجف طلباً للعلم لم يكن في بالي ثروة ووظيفة. وهذا لا يعني أنني لا أحب المال، بل أحبه حباً جماً، لكني بحثت طويلاً عن طريق حلال لثروة تتسع للتوسعة والزيادة على الضروري وبعض الكمالي، فلم أجد. والدين كالثورة أو القضايا الكبرى، أو أن الثورة والقضايا الكبرى هي دين أصلاً وعمادها إذاً هو التقوى، ثم ألا يكفيكم؟ أقول لأولادي إنكم إذا جاء ذكري لم تنكسوا رؤوسكم، حتى لو كان مَن يذكرني من خصومي!!!

لقد كان جزء من دعاء الإمام زين العابدين أقرب من غيره إلى وجداني وقلبي نظراً إلى أنه يتصل بما يُبتلى به أمثالي من مضايقات ومغريات، يقول عليه السلام: "اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وصُن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فأستعطي شرار خلقك وأستشفع بك إلى غيرك، فأُبتلى بمدح مَن أعطاني وذمّ مَن منعني، وأنت من ورائهم جميعاً وليّ الإعطاء والمنع."

عدنا إلى بيروت عن طريق دمشق وما زلنا نذهب إليها ونعود منها عبر طريق دمشق التي قد تُقطع علينا أو نقطع عليها إلى حين ثم نعود ونعود، وخصوصاً إذا اكتشفنا طول وصعوبة ووعورة التفافات ومنعطفات ومطبات الطرق الأُخرى، وعادت دمشق فاكتشفت اكتمالها بنا على شرط المساواة أو التساوي الذي يضمن الشراكة. والطريق إلى طهران عبر دمشق تمر بسماء العراق، وإذا ما كان الوضع العراقي مانعاً، منذ مغامرة أو مقامرة العراق في الكويت، فإنك عندما تدخل في المثلث التركي ـ الإيراني ـ العراقي تستطيع أن تفتح مخيالك على العراق وتمد يدك من نافذة الطيارة فتلمس بأناملك أو أشفار عينيك أو شغاف قلبك رذاذاً عراقياً، وتحمّل الغيمة سلاماً إلى خيمة على الفرات، في الطف، أو في ظهر الكوفة، حيث يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين، علي، ينتظرك على مفرق العدل والوحدة والتوحيد والعلم والفصاحة ونهج البلاغة.. ويغريك لون الرطب فتثبّت في صدرك نخلة، سعفُها يظلل شط العرب، وجذورها تمسك ضفة دجلة عن الانهيار.. وتصبر.. تشتاق وتصبر.. وتذهب إلى طوس، إلى مشهد، تسلّم على الرضا وترسل معه سلاماً إلى الحسين.

بعد عودتي كتبت أدباً سياسياً عن الرحلة نُشر على ثلاث حلقات في جريدة "السفير"، بعنوان: "ذاهب إلى طهران، خذني معك إلى القدس". وما زلت على ذلك، لكني غير مستعجل، وتحرير الجنوب كان دليلاً على أن الأحلام يمكن أن تصبح توقعاً وواقعاً، وليس قَدَر الحلم العربي أن يتحول دائماً إلى كابوس على أن نحسن استكمال الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر.

وشرعت في تجميع الوثائق والصور لأعدّ كتاباً عن الرحلة وما سبقها أرّختُ فيه للثورة وعلاقاتها العربية واللبنانية والفلسطينية، ونقلت انطباعاتي عن طهران وشعارها العظيم "إمروز إيران فردا فلسطين" (اليوم إيران وغداً فلسطين)... وهتافها "إسرائيل نابودست فلسطين بيروزست" (إسرائيل زائلة فلسطين منتصرة)، وفصّلت كثيراً في المشهد الذي رأيناه حولنا في مشهد الإمام الرضا في مدينة مشهد، وفي مدينة الأهواز، حيث اجتمع الجميع، فرساً وعرباً، يتنسمون رائحة فلسطين، ويعقدون العزم على التحرير. وكانت صور جمال

عبد الناصر تلوح بين الأيدي وفوق الرؤوس المحتشدة، مجلواً عنها الغبار العتيق الذي تراكم عليها طوال فترة إخفائها في عهد الشاه، لأن جمال عبد الناصر كان جرماً يعاقب عليه نظام الشاه، فكان ذلك أدعى إلى تعلق الشعب الإيراني بجمال ومصر وفلسطين وأبو عمار. سألني أبو عمار كم عدد المجتمعين في صحن الإمام الرضا في مشهد يستمعون إلى خطابه؟ قلت: ٢٠٠,٠٠٠، قال: أنت شاعر لا تعرف الأعداد، هؤلاء نصف مليون.. وكانت إذاعة مشهد قد أذاعت ليلاً أن ياسر عرفات غادر مشهد، وأن خطابه سيُبثّ غداً مسجلاً من الإذاعة، ومع ذلك حضر الناس بهذه الكثرة، وجلسوا منذ الصباح على بساط من الثلج تحت النفناف الأبيض الغزير حتى الظهر، تماماً مثلما اجتمعوا حول عرفات عندما حوصر، ومثلما انهمر الفلسطينيون على المقاطعة بعد وفاته، ومثلما كان مقدراً لعدد من العواصم العربية أن تغص بأهلها المودعين لأبو عمار لولا أنهم مُنعوا. وفي الأهواز لم تحضرني إلاّ تعليمة خبير سألته عن حركة الكهرباء في الأماكن البعيدة، فقال لي إن الضوء هو ذبذبات تراها من قريب متصلة، وتراها من بعيد شبه منفصلة، ومن الاتصال والانفصال يأتي الضوء والرؤية. كانت حركة الأيدي في إستاد الأهواز تضيء كأنها كهرباء في كربلاء، أو رام الله... وأبو عمار في الوصل والفصل، في الموت والحياة، تيار كهربائي لا ينقطع إلاّ إذا كفّت الزيتونة المباركة في القدس عن إبداع الزيت الذي يضيء ولو لم تمسسه نار. ■


من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات**
**من أوسلو إلى خريطة الطريق**

**٣**

**الطريق إلى خريطة الطريق**
**٢٠٠٠ – ٢٠٠٦**

**أحمد قريع (أبو علاء)**

٥٢٢ صفحة ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)
٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)